اغراض الشعر العربي قبل الاسلام:ج٢

مادة نصوص من الأدب العربي قبل الإسلام الصف الأول المستوى الثاني قسم اللغة العربية

ا.م.د.اياد سالم ابراهيم

٥- الغزل :

والغزل في ابسط تعاريفه تعبير عن ظاهرة الاعجاب بالمرأة درج الشعراء في عصر ما قبل الإسلام على أن تكون دموعهم ، وزفراتهم تعبيرا عن وجدهم ، وترجمانا لهم ، وأن يرسلوا نفثات شجونهم أغاني وألحانا ، فيجعلوها في قصائدهم . ترددت في هذا الموضوع مفردات ثلاث تقاربت وتشابكت في دلالاتها ، وهي ((النسيب ، والتشبيب ، والغزل)) ، وعلى الرغم من اختلاف التسميات فإنها جاءت للدلالة على معنى واحد ، فشبب ونسب وغزل تعطي معنى حديث الفتيان والفتيات ، والغزل اللهو مع النساء ومحادثتهن، واستعمله قدماء النقاد بهذا المعنى .

وهي تشير إلى علاقة اجتماعية لا تقوم على طرف واحد ، إنما على طرفين أساسهما الرجل والمرأة يشتركان في عاطفة واحدة ، والغزل من أصدق الأغراض الشعرية عاطفة، ولذلك كان وثيق الصلة بالبيئة بل إنه في بعض جوانبه تصوير دقيق لها .

ولقد اتجهت استعمالات الشعراء لمفردات الطبيعة في هذا الغرض إلى الإفصاح عن القيم الجمالية للمرأة ، فبرزت واضحة في استلهاماتهم لها كتعابير رمزية لا تكاد تختلف عما ورد في المقدمة الغزلية إلا قليلا ، فأصبحت المفردات رموزا جمالية للحبيبة ، ورمزا للإشراق في شكلها ، فأصبحت التجربة الموضوعية في حديث الغزل تذوب في ميدان الطبيعة ويطالعنا امرؤ القيس بقوله :

وكشح لطيف وساق كأنبوب السقي المذلل
كالجديل مخصر أساريع ظبي أو مساويك إسحل
وتعطو برخص غير
شثنٍ كأنه

فاستحضار الشاعر لنبات البردي وسط النخل المسقي يدل على غضارته ، ونضارته ، فقابل به سيقان حبيبته من حيث النعومة والطراوة ، ثم يشبه أصابعها بمساويك شجر(الإسحل) ليدلل على ملاستها واستوائها علاوة على الدلالات الجمالية التي يبعثها نبات البردي وشجر الإسحل .

أما شعر الحبيبة فكان مثار إعجاب الشعراء في غزلهم بحبيباتهم فيوظف امرؤ القيس من الطبيعة قنو النخلة المتداخل ليشبه به شعر حبيبته ليدلل على كثافته وتداخله بقوله:

وفرع يغشي المتن أثيث كقنو النخلة المتعثكل
أسود فاحم

وهكذا أبدع الشعراء في هذا الغرض ، ورسموا مشاهد غاية في الجمال والروعة عندما جعلوا مفردات الطبيعة تتداخل في غزلهم ليضفوا على المرأة مسحة جمالية ، فعبرت هذه التوظيفات عن صورتها التي تخيلوها في أذهانهم .

٦- الحكمة :

هي موضوع شعري قديم ورد في الشعر العربي قبل الإسلام ، وأجاد فيها الشعراء ؛ لأنها تعبير صادق عن تجارب واقعية عاشها الشاعر ، أو خبرها في سلوك الأفراد ، والجماعات ، وفي أخبار الماضين فصاغها حكمة بالغة للفائدة ، والاعتبار ، والموعظة الحسنة ، ((فجاءت صدى لصفاء الفطرة ، ودقة الإحساس ، وكثرة التجارب ، والقدرة على استخلاص العبرة مما يمر من الأحداث وهي تشف عن عقل راجح يتمتع بقدرة على الموازنة والاستنتاج)).

والناظر في شعر ما قبل الإسلام يجد أن ثمة شعراء كانوا قد طرقوا أبواب الحكمة في غير قليل من قصائدهم ، إلا أنها لم تكن شائعة شيوع الأغراض الأخرى فقد تعرض لها الشعراء في ثنايا قصائدهم بأبيات قليلة فيها من الوعظ والإرشاد ، وارتبطت أغلب حكمهم بمسألة الموت والشعور بالفناء ، فجعلتهم يصوغون أبياتا شعرية تكشف عن عمق بصيرتهم .

ولعلهم وجدوا فيها إيحاءات أعانتهم على البوح بما هو راسخ في دواخلهم تجاه الأمور التي غدت تحكم تجاربهم الموضوعية ، فاستلهموها ليعبروا من خلالها عما يضبط مسيرة الحياة ويطالعنا بذلك قول كعب بن زهير:

بينا الفتى معجب بالعيش إذا الفتى للمنايا مسلم غلق
مغتبط مر الدهور ويفنيه وينسحق
والمرء والمال ينمي ثم إذا هاج وأنحت عن أفنانه الورق
يذهبه
كالغصن بينا تراه ناعما
هدبا

فهذه اللفتة القدرية لم تفت الشاعر في أن يعقد صلة بين تلك الأغصان والأشجار التي يراها مخضرة ثم تذوي ، وبين حياة الإنسان صلة تنم عن قدرة فنية ليست فقط في التقاط تشبيهاته من البيئة حسب بل عقد الصلة الزمنية بين مظاهرها في الإنسان ورؤيته الحياة في النبات .

ويطالعنا بذلك قول بيهس بن هلال الفزاري :

سوف ترى وهي حصاد كل زارع ما يزرع
خلاء بلقع

فالشاعر أفصح عما في داخله ، وكأنه يسعى إلى سن نظام يرسي فيه التعاليم التي تنم عن أن لكل امرئ ما عمل كما أن لكل زارع ما يحصد على وفق ما يزرع إن خيرا فخير وإن شرا فشر بعقلية واعية عن طريق الإيحاء بتوظيف الزارع والمزروع ، ومثله يقول أبو أخزم الطائي:

كل امرئ يا عمر حاصد زرعه والزرع شيء لا محالة يحصد

وهذه الأمثلة إن دلت على شيء فإنها تدل على أن أقوال الشعراء هذه لم تأت من فراغ إنما جاءت عن تأمل واسع ، وخبرة وإن بدت ظاهرية إلا أنها تتسم بالعمق

٧- الوصف :

وهو من الأغراض الشعرية الكبرى في الأدب العربي حظيت الطبيعة منه بحظ وافر ، وهو في معناه اللغوي ، التحلية والتجميل ، يقال : وصفت الشيء له وعليه وصفا وصفة أي : حلاه وجمله.

وهو عند الأدباء : ((تصوير الظواهر الطبيعية بصور واضحة التقاسيم ، وتحليل الآثار الإنسانية بألوان كاشفة عن الجمال ٠٠٠)) .

برع الجاهليون فيه ((فوصفوا الصحراء وآلها...ووقفوا وقفات مطولة أمام الرياض التي باكرها الوسمي ، وجاد المسبل عليها فتضاحك زهرها والتف نبتها)) وكذلك ((تأملوا في الأمطار والسحب والبرق فرسموا من ذلك لوحات ناطقة بالفن الأصيل)) فهم لا يذكرون شيئا ليس من بيئتهم وإنما يذكرون ما تقع أعينهم عليه وما يحسونه .

لم يفرد الوصف في باب خاص وحده إنما تداخل مع جميع فنون الشعر وقد أشار إلى ذلك ابن رشيق بقوله : ((والشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف))والوصف يحتاج إلى شدة الملاحظة ودقة الانتباه وقوة البصر وهي من الأمور التي توفرت للشاعر – الأول – فساعدته على أن ينقل إلينا بشعره كل ما شاهده ورآه في عينه من مظاهر الطبيعة.

ومن الامثلة وصف المطر العنيف (السيول) من قبل الشعراء من خلال مشاهدها التصويرية وفي تصوير شدته وقوته التي لا يقف أمامها أي قوى ، فهو يقلع أضخم الأشجار ويبطحها كما في قول امرئ القيس:

أحار ترى برقا كأن وميضه كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب أهان السليط في الذبال المفتل
وأضحى يسح الماء عن كل فيقة يكب على الأذقان دوح الكنهبل
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أطما إلا مشيدا بجندل
كأن سباعا فيه غرقى غدية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

فحركات الوصف هنا عنيفة يشيع فيها الخوف ، والرعب إلا أنه يعقب ذلك الأمر مشاهد البهجة والسرور بعد أن يهدأ السيل فتضحك أنظار المجدبين والمطر يغدق بجودة على تلك الأرض القاحلة بالنباتات والأعشاب والأزهار

ويرسم عدي بن زيد العبادي لوحة وصفية جميلة إذ يصف الظباء داخل الروضة ، وهن يأكلن من نباتاتها في حياة هانئة إلى أن يكبرن بقوله:

وذي تناوير ممعون له صبح يغذو أوابد قد أفلين أمهارا
والخنس يزجين غنا في طوائفه يضرسن من خروع ريان أثمارا

أما المرأة فكان لها جانب في شعر الوصف ، فدخلت الطبيعة النباتية لتعطي بعض صفاتها كقول طفيل الغنوي:

إن النساء كأشجار نبتن معا منهـا المرار وبعض المر مأكول

فالشاعر باستحضاره للأشجار وأنواعها في تشبيه النساء بها ليوضح من خلالها أن النساء منهن ما هي كالشجرة المرة إلا أنها لا تضر كما أن بعض المر مأكول علاوة على الدلالة الشكلية تختفي دلالة أخرى هي التشابه بين عطاء المرأة وعطاء الشجرة ما بين الثمار والأطفال ، ودلالات جمالية جامعة بين شكل الشجرة وألوانها الزاهية والمرأة ، فالشجرة لها قيمة خاصة في المجتمع العربي

؛ لأنها مقدسة وقداستها (تجسد التجربة الدائمة لتجدد العالم وانبعاثه) وترمز إلى الحياة المعطاة المثقلة بعناصر الخير والنماء وهذه المعاني مما وجدناه مرموزا إليه بما تمنحه المرأة للحياة من عطاء دائم متجدد

ويصف امرؤ القيس أيضا حبة الشعير بقوله :

تلـــك الشـــعيرة تســـقى فـــي ســـنابلها فأخرجـــت بعـــد طـــول المكـــث أكداســـا